



من أدب أم المؤمنين عائشة وبلاغتها العربية

— فهد إبراهيم البكر - السعودية —

عائشة بنت الإمام الصديق الأكبر، خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، سليمة مجد وشرف، وعقيلة خير الوري، أعلم نساء الأرض وأفقهها، وصفها الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في كتابه (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) (ت ٤٣٠ هـ) أثناء ترجمته لها فقال: «ومنهم الصديقة بنت الصديق، العتيقة بنت العتيق، حبيبة الحبيب، وأليفة القريب، سيد المرسلين محمد الخطيب، المبرأة من العيوب، المعروفة من ارتياح القلوب لرؤيتها جبريل رسول علام الغيوب، عائشة رضي الله عنها، كانت للدنيا قالية، وعن سرورها لاهية، وعلى فقد أليفها باكية»^(١).



والنثر حفظاً وروايةً واستشهاداً وإنشاءً، مما أكسبها فصاحة لا يفوقها فائق، وبلاغة لا يشوبها شائب. تعلمت من مدرسة المصطفى صلى الله عليه وسلم، واستقت من فيض الهدي الرباني الزاخر، فكان للقرآن أثره في فصاحتها وبلاغتها، كما كان للحديث والفقه والفتاوى والتعاليم والمواعظ دورها في تشكّل الجانب الفكري والأدبي الذي كان بارزاً في شخصيتها رضي الله عنها.

ولقد شهد لها غير واحد من أهل عصرها بالنبوغ والتفوق الأدبي والبلاغي، فهذا معاوية رضي الله عنه يقول: «والله ما رأيت خطيباً قطّ أبلغ ولا أفطن من عائشة»^(٨).

خطبت رضي الله عنها يوم الجمل فقالت: «أيها الناس! صه صه، إنّ لي عليكم حقّ الأمومة، وحقّ الموعدة، لا يتهمني إلا من عصى ربه، مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحري ونحري، فأنا إحدى نسائه في الجنة أقول قولِي هذا صدقاً وعدلاً، وإعذاراً وإنذاراً، وأسأل الله أن يصلي على محمد، وأن يخلفه فيكم بأفضل خلافة المرسلين»^(٩).

هكذا كانت بلاغتها وإيجازها رضي الله عنها، كانت تتقي الألفاظ المعبرة عن الحال الملائمة بما يتوافق وسياق المقام، وظروف المخاطب، بيّنت في خطبتها هذه الموقف السياسي بعد حدوث القلاقل والفتن، فجاءت خطبتها البليغة ناطقة عن الشخصية الأدبية المتزنة بلغتها، المفعمة بأسلوبها وبلاغتها.

ومن كلامها في أبيها رضي الله عنها عندما نيل منه، قالت عاذلة ومقرّعة: «أبي ما أبي، لا تعطوه الأيدي، ذاك والله حصنٌ منيفٌ، وظلٌ مديدٌ، أنجَحَ إذ أكديتُم، وسبقَ إذ ونيتُم سبق الجواد إذا استولى على الأمد، فتى قریش ناشئاً، وكهفها كهلاً، يُرشي مملّقها»^(١٠)، ويفكّ عانيها، ويرأب صدعها، ويلمّ

تميّزت رضي الله عنها بفضائل عدة لا يمكن حصرها، وأكرم فضائلها حبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لها، إذ كان يجلسها، ويرى أنّ فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام^(١١).

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يتعجبون من علمها، روى هشام بن عروة عن أبيه قال: «ما رأيت أحداً من الناس أعلم بالقرآن، ولا بفريضة ولا بحلال ولا بحرام، ولا بشعر، ولا بحديث العرب، ولا بنسب من عائشة رضي الله تعالى عنها»^(١٢).

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء في أثناء ترجمته لأم المؤمنين رضي الله تعالى عنها: «ولا أعلم في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، بل ولا في النساء مطلقاً امرأة أعلم منها»^(١٣).

وقال عطاء بن أبي رباح: «كانت عائشة أفقه الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة»^(١٤).

وقال الزهري: «لوجمع علم عائشة إلى علم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل»^(١٥).

وعلمها رضي الله عنها وفقها إنما يفسران: لماذا كان صلى الله عليه وسلم يحبها حيث كان يتوسم في شخصيتها الشيء الكثير من الخير المكنون الذي سيظهر مع الأيام، ولهذا كانت علومها رضي الله عنها بجزراً ممدوداً، نقلت إلى الأمة أعزّ ما يعني الناس من أمور دينهم، نقلت إلى الأمة حياة النبي صلى الله عليه وسلم الخاصة، حيث عاشت معه في تفاصيل حياته المقدسة في تهجده، في نومه، في فراشه، في بيته، في مرضه حتى لحظات موته، فأى ثروة هي أعظم من ذلك؟! وأي تراث هو أغلى مما نقلت إلينا أم المؤمنين عليها السلام؟!^(١٦).

من أدبها وبلاغتها رضي الله عنها:

لعل مما تميزت به أم المؤمنين رضي الله عنها نبوغها في سماء الأدب، وتفردها في فلك الشعر



شعثها حتى حَلَّتْ قلوبها^(١١)»^(١٢).

وكان مما تمتعت به رضي الله عنها - بالإضافة إلى إنتاجها الأدبي الثري - روايتها للأشعار وحفظها لها، وتمثلها بها، كانت تشد الشعر وتتمثل به عند زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما كانت تتمثل به عند أبيها رضي الله عنه.

قال الواقدي في سيره: «حدثنا ابن أبي الزناد، عن هشام، عن أبيه قال: ربما روت عائشة القصيدة ستين بيتاً وأكثر»^(١٣).

وقد أورد لها القيرواني في العمدة جزءاً حول كثرة رواية الشعر فقال من ضمن ذلك: «وكانت عائشة رضي الله عنها كثيرة الرواية للشعر، يقال: إنها كانت تروي جميع شعر لبيد»^(١٤).

نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة فجعل جبينه يعرق، وجعل عرقه يتولد نوراً، قالت: فبهتُ، قالت: فنظر إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: مالك بهتُ؟ فقلت: يا رسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يعرق، وجعل عرقك يتولد نوراً، فلوراك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره. قال: وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذلي^(١٥)؟ فقالت يقول:

وَمُبَرَّأً مِنْ كُلِّ غَبْرٍ حَيْفَةً

وَفَسَادٍ مُرْصِعَةٍ وَدَاءٍ مَغِيلٍ

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَسْرَةٍ وَجْهَهُ

بَرَقَتْ كِبَرُقِ الْعَارِضِ الْمُتَهَلِّلِ^(١٦)

قالت فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان في يده، وقام إليَّ فقبل ما بين عيني وقال: «جزاك الله يا عائشة خيراً ما سررت مني كسروري منك»^(١٧).

إن مثل هذه الروح الرائعة بين الزوج وزوجته لا يمكن أن تتبع إلا من نبغ النبوة الصالحة، ومنهلها

الحاني المليء بالدفء العاطفي، والحب الجميل بما يترجمه الشعر من إحساس شفاف وروح مهدبة صافية تمزج ما بين الروحين في أكمل قصص الحب وأحلاها.

وحينما رأت عائشة أباهما يصارع الموت تمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يفني الثراء عن الفتى

إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر^(١٨)

فنظر إليها كهيئة الغضبان وقال: يا بُنَيَّةُ ليس كذلك! ولكن: «وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد»^(١٩)^(٢٠).

لقد تميزت رضي الله عنها من الناحية الأدبية بغزارة المحفوظ وتنوع المصادر ما بين القرآن والحديث والفقه والسير والتاريخ والفتاوى ونحوها، فكانت بذلك مثقفة بليغة.

ولم تكن لتكتفي رضي الله عنها من الجانب الأدبي برواية الأشعار والتمثل بها، أو إنشاء الخطب والمواظع والوصايا والأمثال، وإنما اتسع مجال الفكر عندها إلى مجالات الفكر النقدي والحس البلاغي المستلهم من المنظور الإسلامي.

روى هشام بن عروة عن أبيه أنها رضي الله عنها أنشدت بيت لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم

وبقيت في خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرِبِ^(٢١)

فقالت: رحم الله لبيداً، فكيف لو رأى زماننا هذا؟^(٢٢).

فتركت بذلك تعليقاً اجتماعياً، ونقداً لواقع عاشه الشاعر مما يبرز لنا ثقافة نقدية، بله المحفوظ الشعري، والمخزون الأدبي الذي اعتمدت عليه لها رضي الله عنها.

أورد البخاري في الأدب المفرد ما نصه: حدثنا



وكان عروة يقول لعائشة رضي الله عنها: «يا أمتاه لا أعجب من فقهك أقول: زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابنة أبي بكر رضي الله عنه، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس، أقول: ابنة أبي بكر - وكان أعلم الناس - ولكن أعجب من علمك بالطب كيف هو؟ ومن أين هو؟ وما هو؟ قال: فضربت على منكبي ثم قالت: أي عُرْيَة! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسقم في آخر عمره، فكانت تقدم عليه الوفود من كل وجه ففتنت له، فكنيت أعالجه، فمن ثم».

ولهذا قال العقاد: «ومع هذه المادة اللغوية التي تنم على استقصاء مادة العربية من أعرق مصادرها لا نستغرب ما تواترت به الروايات من علم السيدة عائشة بطب زمانها، وما يصح في زمانها أن يسمى بعلم الفلك والظواهر الجوية لإلمامها بمسالك النجوم ومهاب الأنواء وغير ذلك من معارف البادية والحاضرة في عصر الدعوة الإسلامية».

لقد شيدت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها صرحاً شامخاً بفقهها وأدبها وبلاغتها فكانت من

سعيد بن تليد قال: حدثنا ابن وهب قال: أخبرني جابر بن إسماعيل وغيره عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: «الشعر منه حسنٌ ومنه قبيحٌ، خذ بالحسن ودع القبيح، ولقد رويت من شعر كعب بن مالك أشعاراً، منها القصيدة فيها أربعون بيتاً، دون ذلك»^(٢٣).

فهذا الخبر فيه جانبان: جانبٌ يشير إلى حسنها النقدي وذوقها البلاغي بتمييز الحسن من القبيح، وجانب آخر يدل على كثرة روايتها للشعر، وغزارة محفوظها إضافةً إلى ما سبق الإلماح إليه من روايتها للأشعار والقصائد بتنوع قائلها وأغراضها ومناسباتها.

لقد كانت أم المؤمنين رضي الله عنها علماً شامخاً في علمها وأدبها وبلاغتها ولم تقتصر حدود أدبها وبلاغتها عند هذا الحد وحسب، بل أثر عنها رضي الله عنها معرفتها بالطب مما يوحي باتساع دائرة الأدب في فضاء ثقافتها وعلمها رضي الله عنها.

فمن عروة قال: «ما رأيت امرأة أعلم بطبٍّ ولا بفقه ولا بشعر من عائشة»^(٢٤).



أشهر فقهاء الأمة، معلمة النساء الأولى، راوية للشعر، ناقد ثاقبة، وانعكس أثر ذلك على طبعها ولغتها، فجاء علمها عذباً نَميراً، وأدبها بحراً غزيراً، وبلاغتها نهراً وفيراً، فوظفت بذلك علمها وأدبها وبلاغتها في كل ما يخدم دينها، ويرضي ربه، ويحقق سنة رسولها وحبيبها صلى الله عليه وسلم، فرضي الله عنها وأرضاها، وحسبنا الله على من عاداهما ■

الهوامش:

- (*) كلية الآداب والفنون، قسم اللغة العربية، جامعة حائل.
- (١) الحافظ، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط/١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ١٤٠٩هـ، ٤٣/٢، ٤٤.
- (٢) حديث حسن صحيح. ينظر الحديث في: الترمذي الجامع الكبير، تحقيق وتخريج: د. بشار عواد معروف، ط/١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٦م، ١٨٤/٦، وتحديث رواه البخاري في صحيحه بأكثر من رواية، ينظر: الصالح الستة صحيح البخاري، ط/١، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض - السعودية ١٤٢٠هـ، ص: ٣٠٦ والأحاديث في كتاب المناقب، باب فضل عائشة رضي الله عنها.
- (٣) الأصفهاني، حلية الأولياء، ٤٩/٢، ٥٠.
- (٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط/١١، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٧هـ، ١٣٩/٢.
- (٥) نفسه، ١٨٥/٢.
- (٦) نفسه، ١٨٥/٢.
- (٧) ينظر: محمود شلبي، حياة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، ط/١، دار الجيل، بيروت ١٤١٨هـ، ص: ٤١٣.
- (٨) الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: عبد الله محمد الدويش، د. ط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان ١٤١٤هـ، ٣٨٩/٩.
- (٩) ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق:
- محمد عبد القادر شاهين، ط/١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ١٤١٩هـ، ٤/١٨٦.
- (١٠) أي يغني فقيرها ويكرمه.
- (١١) أي يلم شعثها حتى أحبته كثيراً وحلت منزلته فيها.
- (١٢) ابن طيفور، بلاغات النساء، ضبط وتعليق: بركات يوسف هيّود، د. ط/ المكتبة العصرية صيدا، بيروت ١٤٢٦هـ، ص: ٢٠، ١٩.
- (١٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٨٩/٢.
- (١٤) ابن رشيقي القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط/١، دار الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٦م، ٢٦/١.
- (١٥) هو عامر بن الحليس شاعر جاهلي. ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء أو طبقات الشعراء تحقيق: د. مفيد قمحية، ط/٢، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ١٤٠٥هـ، ص: ٤٤٦.
- (١٦) رواها ابن قتيبة كما يأتي: ومُبرراً من كل غير حصة ورَضاع مَفِيلَة وداء مَفْضِل فإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ٤٤٧.
- (١٧) الأصفهاني، حلية الأولياء، ٤٨/٢، ٤٩.
- (١٨) البيت لحاتم الطائي، ديوان شعره، د. ط، دار صادر، بيروت ١٤٠١هـ، ص: ٥٠.
- (١٩) سورة ق، ١٩.
- (٢٠) ينظر: ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، ط/١، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان ١٩٩٦م، ١٣٩/١.
- (٢١) ينظر هذا البيت في: ليلى بن ربيعة، ديوان شعره، اعتناء: حمدو طماس، ط/١، دار المعرفة بيروت لبنان، ١٤٢٥هـ، ص: ٢٤.
- (٢٢) ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٩٦/٢، ١٩٧، وينظر أيضاً: عبد القادر ابن عمر البغدادي، خزانة الأدب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط/٤، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٨هـ، ٢٤٩/٢.
- (٢٣) البخاري، الأدب المفرد، تخريج وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، ط/٢، دار الصديق الجبيل - السعودية ١٤٢١هـ، ص: ٣٠٢، ورقم الحديث ٨٦٦ وهو صحيح، وقد استقت رضي الله عنها هذا الرأي النقدي من قوله صلى الله عليه وسلم: «الشعر بمنزلة الكلام، حسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبح الكلام» صحيح لغيره، ينظر: البخاري، الأدب المفرد، ص: ٣٠١، والحديث رقم: ٨٦٥ عن عبد الله بن عمرو.
- (٢٤) الهيثمي، مجمع الزوائد، ٣٨٨/٩، ٣٨٩.
- (٢٥) الأصفهاني، حلية الأولياء، ٥٠/٢.
- (٢٦) عباس محمود العقاد، الصديقة بنت الصديق، ط/١٢، دار المعارف، القاهرة د. ت، ص: ٤٤.